سينما

أميركا تنتقد أميركا

سينما كاشفة وفاضحة

أفلام أميركية عدّة مُنتجة عام 2021 تنتقد بحدّة الولايات المتحدّة الأميركية في سلوكها وسلطاتها واجتماعها وإعلامها وناسها

نديم جرجوره

هناك مقولة تتردّد، بين حين وآخر: أهمّ منتقدي أميركا (الولايات المتحدّة الأميركية)، في أفعالٍ ومسالك وثقافةٍ وعيش، هم أميركيون، يُنجزون أفلاماً، ويكتبون رواياتٍ، ويؤلّفون أبحاثاً ودراساتٍ، ويصنعون فنوناً. لن يُسيء إلى هؤلاء وصفُ مفاده أنّ معظمهم يتحدّرون من أصول غير أميركية، فالجميع في أميركا متحدّرون من أصولٍ غير أميركية. أهمّ انتقادٍ لأميركا، أميركيٌّ بحت. هذا واضحٌ وثابتٌ وقديم. سينمائياً، أفلامٌ كثيرة مُنتجَة بأموالٍ أميركية، ومصنوعة بفضل أميركيين وأميركيات، تُفكّك اجتماعاً وسياسة واقتصاداً وإدارة وقيادة وإعلاماً ونفوساً وسلوكاً وأحوالاً وعلاقاتٍ، لتعرية بلدٍ وناسه، ولتنبيه بلدٍ وناسه على وقائع يجهلونها، أو ينفضّون عنها لأسبابٍ جمّة، وعلى حقائق يهربون منها خوفاً وقلقاً من قدرتها على تعريتهم، أي على فضح حقيقتهم.

أفلامٌ كثيرة، وأسماء فاعلة في المشهد السينمائي، وتفاصيل مُثيرة لاشتغالٍ يفضح ويُعرّي ويُفكّك، وبعض هذا الاشتغال يدعو إلى نقاشٍ، ويحثّ على تأمّل، ويريد تنبّهاً، ويستند إلى وعيٍ معرفي، وإنْ يكن الوعي فردياً، غالباً. الردّ، بمعظمه، يتمثّل بأفلامٍ ساخرة، أو بحلقات من مسلسلاتٍ كوميدية، أو بإنتاجٍ معاكس، يتغنّى بأمجادٍ وبطولات، ويسعى إلى تثبيت أساطير عن بلدٍ يُنقذ العالم، وينشر فيه معرفة وديمقراطية وإصلاحاً، لن يتحقّق شيءٌ واحدٌ منها واقعياً. الردّ، بغالبيته، ينعكس في أعمالٍ تُسخّر الخيال العلمي لقولٍ يُجمِّل إداراتٍ حاكمة وقيادات متحكّمة، وتُروِّج لأبطال خارقين ينشرون عدالةً وإنْ عبر عنفٍ وقتلٍ وتدمير، ويؤكّدون، مراراً، على أنّ الفرديّة أهمّ وأقوى من أيّ شيءٍ آخر، يُفترض به حماية الفرد وتلبية حاجاته وحقوقه.

أجمل انتقادٍ، عميق وحادّ وقاسٍ وحيوي، يصنعه أميركيون وأميركيات، استناداً إلى عيشٍ يومي، وتأمّل وتفكيرٍ ينبثقان من مستنداتٍ ووثائق وشهاداتٍ وتحليلاتٍ ونقاشاتٍ، ومن بحثٍ دائمٍ في الخفايا والأرشيف عن كلّ ما يكشف عن مزيدٍ من وقائع وحقائق، وعن كلّ ما يقول وقائع وحقائق. أجمل انتقادٍ، عميق وحادّ وقاسٍ وحيوي، يُصنع بسخريةٍ مُضحكة، أو بجدّيةٍ صادمة، وفي الحالتين، هناك أرشيفٌ قابلٌ لتحليلٍ يؤدّي إلى كشفٍ مستور، وإلى إعلانٍ غير المُفكّر به سابقاً. انتقادٌ كهذا يستند، أحياناً، إلى توليفٍ لتسجيلات ولقاءات ومعاينة دقيقة ليوميات، فردية وجماعية، ولمحتوى إعلاميّ يعكس نبض حياةٍ وواقع في اجتماعٍ وعيشٍ. إنتاج أعمالٍ انتقادية كهذه أميركي صرف. استديوهاتٌ وشركات إنتاج هوليوودية تخوض معركةً كهذه، بين حينٍ وآخر، والأسباب غير مهمّة، وإنْ يكمن

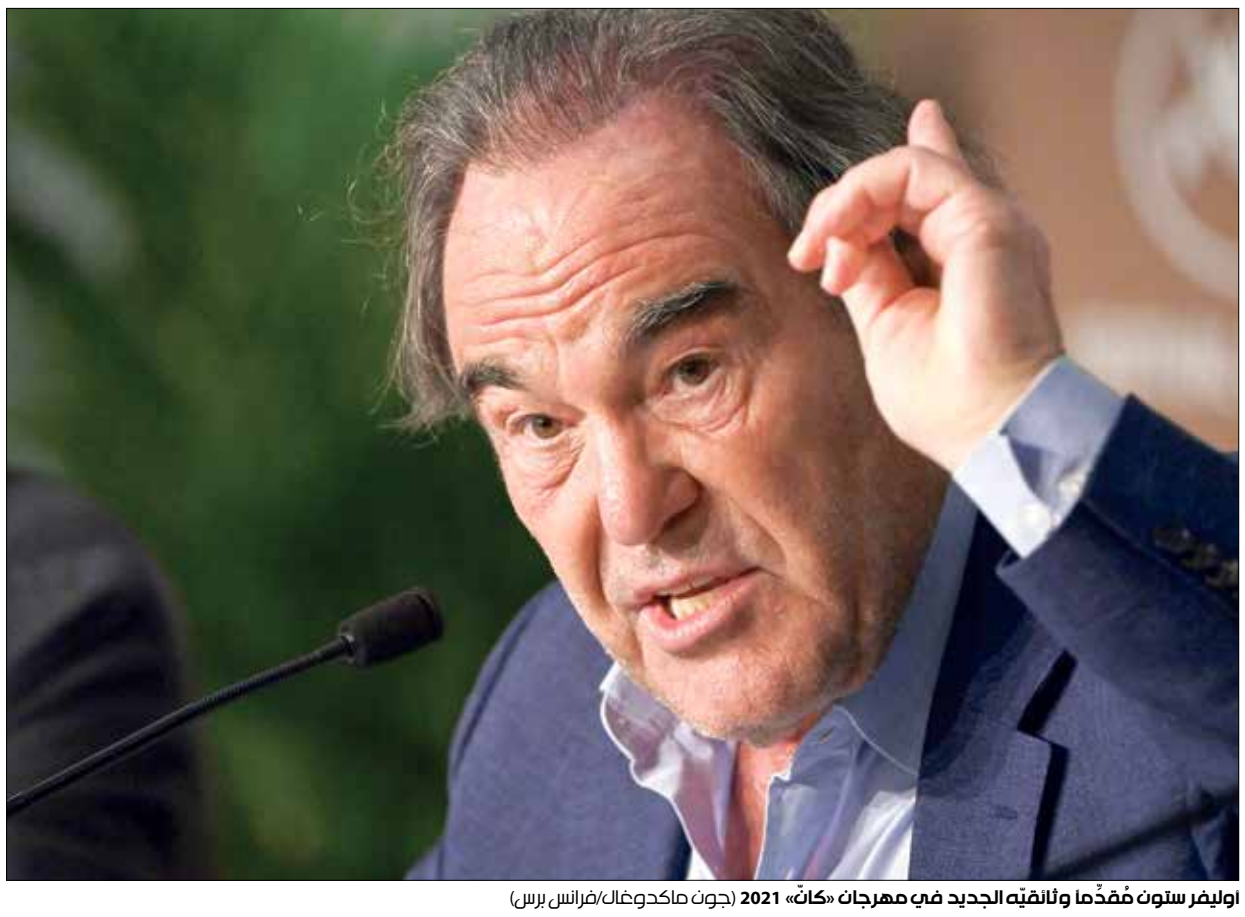

أوليفر ستون مُقدِّما وثائقيّه الجديد في مهرجان «كانّ» 2021 (جون ماكدوغال/فرانس برس)

أجملُ انتقادٍ عميق وحادّ يصنعه أميركيون وأميركيات

أبرزها في رغبةٍ، فردية وجماعية، في مواجهة حالة أو آلية إدارة أو أشخاص محدّدين، من دون تناسي أنّ هناك ميولاً، سياسية وثقافية وأيديولوجية (أحياناً)، تُحرّك هوليوود في اتجاهاتٍ معيّنة، في لحظاتٍ معيّنة. المكانة الفاعلة والمهمة لسينمائيين وسينمائيات، تتمثّل صفتهم الأبرز في التمرّد والمشاغبة، عاملٌ أساسيّ، غالباً، في فرض شروطٍ إنتاجية لتحقيق أفلامٍ تنتقد وتُفكّك وتُعرّي. هذا كلّه يحصل بشكلٍ مباشر وواضح، من دون إلغاء أي اشتغالٍ سينمائي في صُنع فيلم أو سلسلةٍ أو عملٍ؛ أو بشكلٍ غير مباشر، في أفلامٍ روائيّة تستند إلى وقائع وحقائق، لكنّها تتحرّر منها سينمائياً، بهدف إنتاج صُوَر سينمائية بحتة، تقول وتكشف مخفيّاً، أو غير مُعلنٍ عنه.

قبل أسابيع قليلة على نهاية عام 2021، تُنتج «نتفليكس» فيلمين اثنين، يفضحان ويُعرّيان أميركا، في مستويات عيشها: «النظر إلى الأعلى» (2021) للأميركي آدم ماكاي، و«الموت لـ2021» لجاك كْلاف وجوش روبن. كما يُنجز أوليفر ستون ما يثمكن اعتباره استكمالاً سينمائيّا وثائقيّا لرائعته الروائية «ج أف ك» (1991)، بعد 30 عاماً: JFK Revisited: Through The Looking Glass، المُنجز عام 2021، والذي تصعب ترجمة عنوانه إلى العربية، لما في العنوان الإنكليزي من تلاعب بالمفردات ومعانيها، ومن إحالةٍ إلى روايةٍ لويس كارول، التي تُعتبر تتمة لـ«مغامرات أليس في أرض العجائب» (1865): «من الجهة الأخرى، وما الذي عثرت عليه أليس هناك» (ترجمة حرفية للعنوان الإنكليزي: Through The Looking Glass، And What Alice Found There)، الصادرة بلغتها الأصلية عام 1871.

يُركّز وثائقيّ ستون على حدثٍ واحدٍ، يتمثّل باغتيال الرئيس الأميركي جون فيتزجيرالد كينيدي (1917 . 1963)، ويكشف أحوال بلدٍ لحظة الاغتيال، وما قبله وما بعده، في السياسة والأمن والعلاقات الاجتماعية والاقتصاد، فيُقدّم بعض الجديد في المسألة، المخبّأ وغير المُفكّر به والمُهمَل، أو يُعيد قراءة المعلوم، والوارد في «ج أف ك». يقول ستون إنّه مصدومٌ إزاء جهلٍ طاغٍ على أكثر من جيل أميركي، بخصوص كينيدي واغتياله، أي بخصوص أميركا وارتباكاتها، وهذا تحريضٌ له على إنجاز الوثائقيّ، من بين أسبابٍ أخرى للتحريض، معايناً ما لديه من معطيات، ومعرّياً، مرّة جديدة، بلداً واجتماعاً وأناساً ونظام حياة وتفكير وعلاقات.

فيلما ماكاي وكْلاف . روبن ينفلشان على مسائل كثيرة، تُساهم في إحداثِ مزيدٍ من الخلل في بنية تفكير الفرد الأميركي، ومشاعره وحساسيته إزاء عيشٍ وآليات حُكمٍ وتحكّم، ويتقاطعان في نقاطٍ عدّة، في كشفهما وقائع أفراد وجماعات في كيفية التعاطي مع كلّ شيءٍ تقريباً، وفي كيفية الخضوع لسلطاتٍ، في السياسة والاقتصاد والعسكر والإعلام، كما في وسائل التواصل الاجتماعي.

كلّ فيلمٍ من هذه الأفلام الـ3 يستحقّ المُشاهدة والنقاش، فالمسائل المطروحة فيها أكبر من أنْ تُختصر بتعليق نقدي، وأعمق من أنْ تُناقش بكلامٍ عابر. الأفلام الـ3 تقول أيضاً إنّ أميركا قادرةٌ . رغم كلّ شيءٍ . على أنْ تكون هكذا: فسادٌ وفضائح وسلطات حاكمة ومتحكّمة، وأفرادٌ أميركيون يواجهون ويُعرّون ويُفكّكون أحوالها، بقسوة وحدّة غالباً.

«بلفاست»: سيرةٌ سينمائية بليغة تُودِّع طفولةً

فيس قاسم

في مشهد واسع، مُصوَّر من علوّ، يظهر ميناء المدينة الأيرلندية بلفاست بألوانٍ قوية. منه، تنتقل الكاميرا (هاريس زمْبَرلوكّس) سريعاً (قطع حاد) إلى مشهد آخر بالأسود والأبيض، يظهر فيه حيّ عمّالي، يضجّ بحركة الأولاد، ويتبادل سكّانه التحايا بالأسماء، كأنّهم جميعاً يعرفون بعضهم بعضاً جيداً.

الفاصل الزمني بين المشهدين . الملوّن القصير، والأسود والأبيض، طول مدّة الفيلم (97 دقيقة) . يقارب نصف قرن، عقودٌ منه شهدت حرباً أهلية قاسية، عاش الأيرلندي كينيث براناه (1960) بعض طفولته فيها. ذكرياته وحنينه إلى المدينة، التي غادرها مُكرهاً، يكتب عنها فيلماً (سيناريو وإخراج)، يستذكر فيه تلك اللحظات القصيرة الحلوة من عمره، يوم كان لاهياً عن مشاغل العالم، ومنشغلاً بتفاصيل صغيرة، ظلّت عالقة في ذهنه حتّى بعد أنْ كَبر وصار سينمائياً، يكتب سيرته في فيلم بعنوان «بلفاست» (2021)، من منظور الطفل الذي كانه عام 1969.

بعيني الطفل بادي (جود هيْل)، تُكتب سيرة المدينة لحظة اندلاع الحرب الأهلية بين البروتستانت والكاثوليك. عام 1969، لم يفهم الطفل (9 أعوام حينها)، المحبوب والثرثار وصديق الجميع، ما الذي يحدث للشارع الذي يلهو فيه. خياله يسبق واقعه. يحارب . بترسٍ معدني (غطاء برميل القمامة) وسيف خشبيّ . خصومه، ويتخيّل قبل نومه رحلته إلى القمر. عند جدّيه (جودي دانش وكيرن هايندز)، يُعيد سرد أحداث يومه المشحون دائماً بانفعالات مبهجة، أكثرها التباساً علاقته بجارته وزميلة صفّه، المنشغلة عنه بطالبٍ آخر، ومع ذلك يُحبّها ويريد الزواج منها حين يكبر.

عالم الطفل بادي مُفرح وعفوي. الانشغال به يحيل السيرة الذاتية إلى مرتع بصري حلو. الأذى اللاحق ببطلها، جرّاء الصراع، يُضفي بشاعة على الحرب، ويثير في النفس كراهية لها، لأنّها أفسدت عالمه المتخيّل، وخرّبت حياةً كان لها أنْ تمضي بالإيقاع السهل نفسه، المنقول إلى الشاشة باشتغالٍ سينمائي متماسك، مشفوع بالتفاصيل التاريخية الدقيقة.

بشاعة الحروب الأهلية تتأتّى، قبل كلّ شيءٍ، من مباغتتها للجميع. تأتي فجأة، وتعمّ. تغدو لحظة اندلاعها واقعاً يترسّخ منذ زمن بعيد، ولا مفرّ منها. المبتعدون عنها لا يمكنهم المكوث فيها. عليهم الرحيل، أو الموت بين طرفيها. هذا مُجسّد ببراعة في السيرة السينمائية، وفي الشخصيات المكتوبة بشغف. حنينه إلى عائلته، وإلى الشارع الذي نشأ فيه، طاغٍ. يؤجّل البحث في أسباب ما جرى، من دونَ نسيانه. يترك للنص وظيفة النقل التاريخي للوقائع، وللممثلين البارعين تأدية الشخصيات المجبولة بخيال طفل، يؤجّل . كما تؤجّل السينما المبتهج بمشاهدتها بصحبة عائلته . الإحساس التراجيدي بمصائرها. ألوان أفلامها تكسر رتابة لونين (الأسود والأبيض) يخيّمان على مدينةٍ، يُعدّ لها خرابٌ فظيع.

«بلفاست»: بلاغة الأسود والأبيض في سرد سيرة ذاتية (الملف الصحافي)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

أخبار

◆ في إعلانه المبطّن عن اعتزاله العمل السينمائي، كشف المصري داود عبد السيّد عن أحوالٍ مزرية تعانيها السينما المصرية، لأسبابٍ عدّة، لعلّ أبرزها غيابٌ شبه كامل للمنتج الفني، أي ذاك المهموم بالسينما كصناعة وفن ونقاش وتفكيكٍ واشتغالاتٍ مختلفة. غيابٌ كهذا أدّى إلى حالة استرخاء كبير أمام أعمالٍ تهتمّ بالترفيه والتسلية فقط، معتمِدةً على التسطيح والكوميديا الهابطة والأكشن الباهت. قال داود عبد السيّد إنّه غير قادرٍ على التعامل مع الجمهور الموجود حالياً، ومع نوع الأفلام التي يريدها هذا الجمهور، الساعي فقط إلى ترفيه وتسلية، مُضيفاً أنّ الإنتاج والتمويل ينصبّان حالياً في مشاريع معنية بهذين الترفيه والتسلية، ومُشيراً إلى أنّ الجمهور يبحث عن تسلية لا عن مناقشة قضايا، وينصرف عن كلّ شيءٍ حقيقي في النفس البشرية. كما انتقد «التأثّر الشديد بالسينما الأميركية في المشاهد»، من دون أن تكون لها «قيمة حقيقية»، كمشاهد تحطيم السيارات وحمل السلاح وإطلاق الرصاص، فهذه «مشاهد منقولة»، تُقدّمها السينما الأميركية بشكل محترف وحبكة فنية أقوى. كلامٌ كثير قاله داود عبد السيّد قبل أيام، وبعضه كان يُردّده سابقاً مخرج «البحث عن السيّد مرزوق» (1990) و«الكيت كات» (1991) و«أرض الخوف» (1999) و«رسايل البحر» (2010) وغيرها، موضحاً، في أكثر من مناسبة، أنّ لديه سيناريوهات جاهزة للتنفيذ، لكنّ المنتجين الحاليين منفضّون عنها. قراره بالاعتزال يُثير استنكاراً وسجالاً فيسبوكياً منذ أيام عدّة، وخوفاً من مسار السينما المصرية ومصيرها، في لحظة تاريخية قاسية وخانقة، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وفنياً. يُذكر أنّ كلّ فيلمٍ من أفلام عبد السيّد يواجه تحدّيات إنتاجية عدّة قبل اكتماله، ويطرح أسئلة مختلفة عن الذات والانفعال والتفكير والعلاقات والوقائع والذاكرة والرغبات، بأسلوبٍ يمزج عمق التحليل والتأمّل بلغةٍ بصرية تُكمِل هذا العمق، وتُترجمه صُوراً وتمثيلاً وتوليفاً واشتغالاتٍ تتوافق مع ما يطرحه من أسئلةٍ بموازية واحتيال سينمائيين رائعين، ومُثيرين لمتعة مُشاهدة ولرغبة في النقاش، خاصة أنّ عبد السيّد، كبعض أبرز مخرجي جيله السينمائي المصري والعربي، يمتلك ثقافة ووعياً معرفياً يُثريان نتاجاته، كما يُثريان كل نقاش وكلامٍ معه بكمٍّ كبير من المعطيات.

أقوالهم

مهمّ بالنسبة إليّ صنع أفلامٍ تتناول قضايا ومواضيع تمسّني شخصياً. أحاول دائماً صنع شخصيات يتعاطف معها الجمهور. العالم العربي غنيٌّ بالقصص والحكايات والشخصيات، وهذه كلّها مادة ملهمة لصنّاع الأفلام. في كلّ فيلم، تناولت قضية مختلفة، وعالجتها بطريقتي. في كلّ تجربة وفيلم، تعلّمت شيئاً ما ساعدني في الفيلم الذي تلاه.

دارين ج. سلاّم

أختار المشاريع التي تكوِّن فيّ شعوراً بأنّي لم أشاهد فيلماً مُشابهاً لها قبلاً. لن أنتج أبداً فيلماً يُشبه شيئاً سبق أنْ شاهدته. هذا أول معيار، يصعب العثور عليه. بعد ذلك، يهمّني النقاش مع المؤلّفين. أطرح عليهم أسئلة كثيرة، لأتأكّد مما إذا كانوا يعرفون مواضيعهم جيداً. في هذه الحالة، يمكننا الانتقال سريعاً إلى مرحلة العمل.

رون داينز

أحدهم قال إنّي وصفت الممثلين بأنّهم قطيع من الماشية. أنا لا أقول كلاماً مهيناً مثل هذا. هذا وصف فظّ. ما قلته حقيقةً أنّ الممثلين تجب معاملتهم كأنّهم قطيع من الماشية.

الفرد هيتشكوك

أفعالهم

The King’s Man لماتيو فوغن، تمثيل رالف فينيس و**جيما آرتِرْتن** (الصورة): بعد مرور سنين على إنشائها في الحرب العالمية الأولى، وانضمام رجالٍ ونساء كثيرين إليها، باتت وكالة التجسّس البريطاني «كينغزمان» أقوى وكالة في العالم. أحد الرجال يُقرّر خوض سباقٍ مع الزمن لإفشال خططٍ أسوأ الطغاة والمجرمين في التاريخ.

Encanto (تحريك) لبايرون هاورد وجاريد بوش و**شاريس كاسترو سميث** (الصورة): تعيش عائلة مادريغل في منزل ساحر، في مدينة «إنكانتو» (جبال كولومبيا)، التي تمنح طفلاً واحداً في كلّ أسرة قوّة خارقة أو قدرة على الشفاء. ميرابل وحده لم يحصل على شيء، لكنّ سحر المدينة يواجه تهديداً خطراً، يواجهه الصبي بمفرده لإنقاذ المدينة وسماتها من الاندثار.

«يربوا بعزّكن» لديفيد أوريان، تمثيل **تقلا شمعون** (الصورة): يلتقي 4 أشخاص في مستشفى، عندما تكون زوجاتهم في غرف العمليات للإنجاب. تفاصيل كثيرة تحدث، وحكايات عديدة تُروى، وأمور تحصل تؤدّي إلى لحظاتٍ غير متوقّعة، فتخرج الأمور عن السيطرة.